أهمية فقه الوثائق في دراسة تاريخ المجتمع البجائي

أ.ة/ ملاك لمين*

-الملخص:

يعتبر فقه التوثيق من أحدث المباحث في الدراسات التاريخية الفقهية ولأن الفقه في جانبه التطبيقي يبحث عن حلول لمشاكل المجتمع فهو بالتأكيد يحتوي مادة مصدرية جديدة مهمة في دراسة نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية وباعتبار كتب التوثيق تحتوي على وثائق ونماذج لعقود كانت متداولة في الفترة الوسيطة فهي تحفظ لنا مشاهد من الممارسات اليومية التي شهدها مجتمع بجاية.

Abstract:

The jurisprudence of the documentation of the newest detective in historical studies of jurisprudence and because of jurisprudence in his Applied looking for solutions to the problems of society is certainly contain a new a source important in the study of aspects of social and economic life and as written documentation containing the documents and models for decades were in circulation in the period intermediate It kept us scenes of everyday practices witnessed by the community Bejaia.

-مقدمة:

يعتبر فقه التوثيق من أحدث المباحث في الدراسات التاريخية الفقهية ولأن الفقه في جانبه التطبيقي يبحث عن حلول لمشاكل المجتمع فهو بالتأكيد يحتوي مادة مصدرية جديدة مهمة في دراسة نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية وباعتبار كتب التوثيق تحتوي على وثائق ونماذج لعقود كانت متداولة في الفترة الوسيطة فهي تحفظ لنا مشاهد من الممارسات اليومية تمكننا من بناء نظرة أشمل وأكثر دقة عن المجتمع المدروس، والوثائق من هذا الجانب هي تكمل ما عرف عند دارسي التاريخ الوسيط بالنوازل الفقهية

* أستاذة باحثة مختصة في التاريخ الإسلامي - جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة-2 - الجزائر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التي هي على قدر كبير من الأهمية في الكشف عن ملامح مجتمع العصر الوسيط، وكمثال على ذلك اخترنا بجاية للتعريف بمنظومتها في مجال علم التوثيق ولتكون أنموذجا في استقاء المعلومات المجتمعية من خلال مصادر كتب التوثيق وقبل ذلك وجب التعريف بفقه الوثائق وبمنظمة هذا العلم في حاضرة بجاية موضوع البحث.

1-صناعة التوثيق وعلاقتها بالقضاء

علم الوثائق أو علم الشروط كلاهما واحد لكنه اختلاف في التسمية فعلم الوثائق اعتمدت عند المالكي علم الشروط عند الحنفية، ولغويا فالتوثيق بمعنى الإحكام والشد والربط، أما اصطلاحا فعلم التوثيق أو فقه الوثائق هو علم يعتمد على الفقه في عقد وصياغة المعاملات اليومية بين الناس بغرض حفظ حقوقهم وفق الضوابط الشرعية وهو "علم شريف يلجأ إليه الملوك والفقهاء وأهل الحرف والسوقة والسواد كلهم يمشون إليه ويتحاكمون بين يديه ويرضون بقوله ويرجعون إلى فعله"[1] فهو يحفظ حقوق كل منهممستندا على المذهب المتبع في البلاد وتسمى صنعة التوثيق أيضا بالكتابة الشرعية تفريقا لها عن الكتابة الأدبية التي يختص بها من يكتبون الرسائل بمختلف أنواعها ما بين الرعية أو من الرعية لولاة الأمر أو بين ولاة الأمر على اختلاف مراتبهم وهي في ذلك تحتاج لمن يتقن الأدب دون الفقه على خلاف الكتابة الشرعيةالتي اعتمدها أساسا على الفقه الضابط للأمور الشرعية وبه سميت الكتابة الشرعية. والتوثيق هو خطة قد نجدها باسم خطة العدالة أو خطة الشهادة أو خطة التوثيق والغبريني[2] الذي ترجم لعلماء بجاية يسميها خطة العدالة ويقول في كثير من تراجمه: فلان " ..... تخطط بالعدالة " .

وفي بجاية عرف هذا العلم مع دخول المذهب المالكي وانتشاره في كل المغرب الأوسط باعتبار فقه الوثائق فرع من فروع الفقه المالكي الذي ساد أغلب الغرب الإسلامي، فصارتبجاية من أهم حواضر الفقه المالكي في كل الغرب الإسلامي خاصة في فترات ازدهارها إضافة لدعم قلعة بني حماد لها باعتبارها تنتمي لإقليمها من جهة ووريثتها من جهة أخرى خاصة بعد الهجرة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الهلالية فالرصيد المعرفي والعلمي الذي حصلته بجاية أكثره من نتاج القلعة وكتب التراجم غنية بالقامات العلمية التي اشتهرت ببجاية وأصلها قلعة بني حماد، ومنهم الغبرينيالذي خص بجاية بكتابه وركز على القرن السابع الهجري من العلماء ومنهم القضاة والموثقين وهو ما يجعل معلوماته دقيقة في موضوع فقه التوثيق لأنه كان قد مارس القضاة في بجاية فهو على دراية بهذه المنظومة التوثيقية والقضائية.

التوثيق السلطاني أما ولاة بجاية وعمالها فيختلفون عن عامتها في كتابة عقودهم وتميزوا عن العامة بخطة الوثائق السلطانية[3] التي تختلف عن خطة الوثائق العادية أو الخاصة بالعامة فالولاة وأسرهم وأيضا حاشية السلطان والولاة يختصون بموثق يكتب لهم وثائقهم وعادة ما يكون قاضي الحضرة حسب ما يستفاد من كتب التراجم، إضافة لهذه المهمة السلطانية فقاضي الحضرةهو المشرف على الخطةفي بجاية ويكون موثقا "يختاره الحاكم عادة من أهل الدراية والعلم والعدالة"[4].

علاقة الموثق بالقاضي والموثق والقاضي كثيرا ما تتقاطع مهامهم غير أن القاضي هو من يشرف على الموثق والموثق غالبا ما يساعد القاضي في سجلاته ووثائقه؛ فالقضاة يستعينون بالموثقين في مسك سجلاتهم لما يتمتع به الموثقون من إحكام وضبط ففي بجاية كان القضاة يعتمدون في تسجيلاتهم عل الموثق أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الوغليسي (ق 7 هـ/13 م)[5]، وكثيرا ما ناب الموثق "أبو عبد الله بن صالح الخطيب عن القاضي في بعض وظائفه خاصة قضاء الأنكحة"[6] ونيابة القاضي في الأنكحة تحتاج إلى إعمال نظر للتأكد من شروط صحة العقد وهو ما يبين قدرة الموثقين على مثل هذه الوظائف الفقهية التي تحتاج إلى إمكانات نظرية وتطبيقية اكتسبوها من ممارستهم للتوثيق وهذه النيابات هي بمثابة ترقيات للموثقين ومرحلة لإثبات الأهلية لتولي منصب القاضي،فكثيرا ما يعرض الولاة والسلاطين على بعض الموثقين مناصب لتولي القضاء "فعبد الحق بن ربيع[7]عرض عليه قضاء بجاية فامتنع منه ووصل إليه كتاب السلطان

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحفصي بتولي القضاء في قسنطينة فاعتذر"[8]؛ فعرض القضاء مرتين عليه يبين كفاءة هذا الموثق وأهليته لمنصب القضاء.

وظائف أخرى للموثقين ومن الموثقين من قدموا لإمامة الناس في الصلاة أو الخطابة في المساجد مثل الموثق "أبو محمد بن علوان[9] (ق 7 هـ/13 م) الذي ناب في صلاة الفريضة بالجامع الأعظم ببجاية"[10] ولم يكن ذلك إلا نظير أخلاقهم ومكانتهم في المجتمع البجائي وعليه وجب في الموثق أن يكون صاحب أخلاق حميدة مقبولا في مجتمعه مفضلا، وكثيرا ما عرف الموثقون بالأخلاق المرضية.

شهرة الموثق ومن جهة أخرى فالموثق إذا اشتهر اشتهرت وثائقه وعرف خطه فهو دليل على عدالته فلو كان عكس ذلك لانفض الناس من حوله ومن حول وثائقه ومن هنا جاز للشاهد على الخط أن يشهد بعدالة كاتبه بتكرار خطه عليه وإن لم يعاينه يكتب ومن موثقي بجاية الذين اشتهرت خطوطهم " أبو القاسم عبد الرحمن بن السطاح (ت629هـ/1231 م) الذي كان بارع الخط حسن الضبط"[11]، كما أن " أبا المعالي محسن بن أبي بكر بن شعبان (ق 7 هـ/13 م) يعتبر من العدول المعول عليهم ببجاية وله خط بارع في نهاية الإتقان والجودة"[12] فالخطوط أنواع ومن أتقنها حسنت وثيقته، ومن اشتهر خطه فهو دليل على كثرة تداول وثائقه بين الناس واشتهار عدالته.

2-أشهر موثقي بجاية.

تميزت بجاية بكونها حاضرة علمية مهمة بعلمائها وفقهائها زارها الكثير من كبار العلماء وطلبة العلم فنسجت بذلك علاقات علمية متعددة باعتبارها محطة مهمة في طريق طلاب العلم بين المشرق والأندلس ومن أشهر فقهاء التوثيق بها:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1. أبو عبد الله الخشني محمد بن محمد بن الحسين (ت نحو 640 هـ/1242 م): " كان في صناعة التوثيق إماما، عليه اعتماد أكثر أهل بجاية في وقته، وكذلك كان اعتماد الفقيه القاضي أبي عبد الله الأصولي عليه، هو فقيه جليل مدرك مقدم مشارك مشاور مجيد من أهل بجاية "[13].

2. عبد الحق بن ربيع (ت 675 هـ/1276 م): "شيخ شيوخ الموثقين في بجاية وروح بلده ومصره وواسطة نظام أهل زمانه وعصره، يقول فيه ابن المطرف بن عميرة إنه انفرد في الكتابة الشرعية عن الناس كان يحمل فنونا من العلم: الفقه، الأصلان، المنطق، التصوف الكتابتان الشرعية والأدبية الفرائض والحساب، كان هو القاضي على القضاة بالحقيقة لأن مرجع أمرهم إنما كان إليه فاق في وثائقه من سبقه، أهل العلم يثنون عليه ويقولون لم يكن في المغرب الأوسط مثله اشتهر بعلمه ومكانته حتى بلغ ذكره للسلطان الحفصي المستنصر"[14]، فهو من أهم موثقي بجاية والمغرب الأوسط على الإطلاق.

3. ابن علوان أبو محمد عبد الله بن محمد بن موسى البجائي (ق 7 هـ/13 م): " شيخ كتاب الكتابة الشرعية في وقته فقيه، كاتب،أديب له فقه جيد جمع بين الكتابة الشرعية والأدبية له نظم في الفرائض وعلى وثائقه العمل في الدولة الحفصية"[15].

4. أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المنصور القلعي: "موثق الوقت"[16]من شيوخ التوثيق في بجاية.

5. ابن عتيق الغساني " لقي المشيخة التي لقيها الفقيه أبو محمد عبد الحق بن ربيع فكانت قراءتهما معا"[17]، يشترك ابن عتيق مع عبد الحق بن ربيع في المشيخة وهما يتربعان على عرش مشيخة التوثيق ببجاية وتكوينهما كان جزء منه بالجزائر وربما هذا ما يطرح التساؤل عن أثر التوثيق الجزائري بالبجائي.

من موثقي بجاية من اكتفوا بكتابة الوثائق ومنهم من مارسوا التدريس وفي الغالب سيكونون قد درسوا التوثيق ومنهم:

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

6. أبو محمد عبد الحق الاشبيلي (ت 581 هـ/1185 م): "استقر ببجاية وجلس للوثيقة والشهادة ولي قضاءها، قرأ عليه كل من: ابن حبوس، أبو عبد الله محمد بن صمغان، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الوغليسي"[18]، هو من الفقهاء الذين ساهموا في إثراء المدرسة البجائية بشكل فعال حتى أن من تتلمذوا عليه صاروا من أبرز الموثقين.

7. أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن السطاح(ت 629 هـ/1231 م): "الشيخ الفقيه النحوي والأستاذ اللغوي اشتغل بالعدالة والتدريس في بجاية بعد (623 هـ/1226 م) إلى أن توفي من تلاميذه أبو عبد الله القلعي "[19]، على قدر اشتهاره بالتوثيق اشتهر كذلك بالتدريس وساهم في تكوين مدرسة التوثيق البجائية.

8. أبو زكرياء يحي بن عباس بن أحمد بن أيوب القيسي (حيا 649 هـ/1251 م): "من عدول الشهود أخذ الناس عنه ببجاية، ألف برنامجا ضمن فيه شيوخه وما سمعه عنهم كتب إلى "ابن الزبير" صاحب "صلة الصلة" بإجازة عامة عما رواه سنة (649 هـ/1251 م) "[20]، وأخذ الناس عنه يفيد بأنه ممن جلس للتدريس واشتهاره بالعدالة يؤكد معرفته بالتوثيق، فربما أخذ عنه علم التوثيق بمجلسه ببجاية، زيادة على الإجازات الكتابية التي كان يكتبها لمن هو خارج بجاية.

9. أبو عثمان سعيد بن علي بن محمد بن زاهر البلنسي (ت 654 هـ/1256 م): "أقرأ ببجاية وروى وأسمع وأخذ عنه واستفيد منه، قرأ عليه الفقيه أبو عبد الله بن صالح الخطيب وأبو العباس بن خضر وهما سند أبي العباس الغبريني إليه"[21] وهو من نخبة مدرسي بجاية تخرج عليه الموثقون والقضاة مثل الموثق أبو عبد الله بن صالح الخطيب والقاضي أبو العباس الغبريني الذي ينتسب إليه ويعده من ضمن سلسلة مشيخته.

10.ابن محرز أبو بكر محمد بن محمد (ت 655 هـ/1257 م): " كانت تقرأ عليه الكتب الفقهية وكتب الحديث واللغة والأدب، لا يخلو له وقت عن الاشتغال بالعلم إما رواية، تدريسا، مقابلة أو عرضا للمسائل، كان أحسن الناس خلقا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وألينهم جانبا للطلبة، قيد أصحابه عنه الكثير ومما قيدوه خطب في النكاح وكان هو رأس الجماع الأندلسية وعنده مجتمعهم"[22]، "أخذ عنه أبو عبد الله بن صالح الخطيب"[23] و"أبو العباس بن الغماز ولقيه بمالقة أبو إسحاق إبراهيم بن أبي بكر التلمساني وأجاز له"[24] وهؤلاء الثلاثة ممن قرؤوا عليه مشهورون بالتوثيق وهو ما يعني أن ابن محرز كان يدرس كتب التوثيق من جملة الكتب الفقهية التي كان يدرسها.

11.أبو علي عمر بن أحمد العمري(ت بعد 660 هـ/1262 م): "الشيخ الفقيه الأصولي من أهل بجاية انتصب للتدريس بها وكان يقرأ عليه الفقه والأصلان، أخذ عنه عبد الحق بن ربيع"[25]و اشتهاره بالفقه والتدريس وأخذ الموثق الشهير عبد الحق بن ربيع عنه يدل على أنه ممن درس التوثيق باعتباره من فروع الفقه وممن ترك بصمته في مشيخته لأنه ساهم في تكوين الشخصية العلمية لشيخ موثقي بجاية عبد الحق بن ربيع.

12.أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمر القلعي (ق 7 هـ/13 م): "الشيخ الفقيه كان شاهدا بالديوان درس بالجامع الأعظم ببجاية، حافظ للخلاف العالي والمذهب المالكي كان يبدأ مجلسه بالرقائق ثم بالفقه والحديث، أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن صالح الخطيب"[26] ممارسته للشهادة وتدريسه للفقه وحفظه للخلاف في المذهب المالكي يثبت قدرته على تدريس الوثائق ولعلها من جملة العلوم التي درسها بجامع بجاية وما يؤكد ذلك هو تتلمذ الموثق المشهور أبو عبد الله محمد بن صالح الخطيب عليه.

13.أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر المنصور القلعي (ت 670 هـ/1271 م): "عالم بأحكام الوثائق والشروط هو موثق الوقت كان له علم بالفقه والفرائض علما وعملا وله علم بالحساب سبق فيه الأوائل لم يكن في بجاية في وقته أحد يريد قراءة الفرائض إلا قرأها عليه كان يقصد من البلاد البعيدة لقراءة هذا العلم عليه، وله مجلس يقرئ فيه أحيانا " التهذيب في اختصار المدونة " لابن القاسم"[27] وهو نتاج مدرسة التوثيق البجائية فقد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تتلمذ على ابن السطاح ولعلم الفرائض أهمية كبيرة في كتابة الوثائق ويعد من العلوم المساعدة لعلم التوثيق خاصة في وثائق الميراث (الفرائض).

14.أبو عبد الله محمد بن صالح الخطيب (ت 699 هـ/1299 م): "تخطط بالعدالة وجلس للوثيقة روى وأجاز وأقرأ واستنفع به خلق كثير له علم بالقراءات والنحو واللغة والأدب وورواية الحديث كما له شعر حسن، فكان أحدا ممن كثرت عليه القراءة والرواية ببجاية "[28]، شهرته بالوثيقة كتابة وباللغة والنحو تدريسا يجعله ممن يقصد لدراسة الوثائق وإحكامها لغويا.

15.ابن صمغان أبو عبد الله محمد بن عمر القلعي (ت ق 7 هـ/13 م): " الشيخ المشهور له علم بالوثيقة والفقه والحديث كان يقرأ عليه الموطأ قراءة تفهم، له مجلس دراسة بعلو سقيفة داره يجتمع فيها إليه خواص الطلبة"[29]، هو فقيه محيط بالمذهب المالكي مدرس مدقق في المذهب اختص بتدريس الموطأ، كما أن علمه بالوثائق واشتهاره بالفقه والتدريس يدعم اعتباره ممن درس التوثيق ببجاية.

قد رصدنا من موثقي بجاية لحد الآن خمس عشرة (15) من أشهر موثقيها ومن خلال تراجمهم يتضح بصورة جلية تعدد علاقاتهم وتنوعها من خلالها تكون قد تنوعت علاقات مدرسة التوثيق البجائي خاصة عن طريق رحلة طلب العلم أو عن طريق الاستقرار ببجاية وتدريس التوثيق أو امتهانه.

3- التوثيق البجائي تأثيرا وتأثرا.

- موثقو بجاية وموثقو تلمسان.

أحسن من مثل هذه العلاقة سعيد بن محمد بن محمد بن محمد العقباني "القاضي المشهور وذائع الصيت الذي استقر لفترة ببجاية وتولى قضاء جماعتها وفي الوقت نفسه كان يكتب الوثائق للناس"[30] وهو بذلك ينقل خبرته بالوثائق التي حصلها أثناء تكوينه العلمي بتلمسان ويضعها في خدمة أهل بجاية ثم عاد بعد ذلك إلى تلمسان وتولى القضاء بها، فهو نموذج واضح عن وجود بعض العلاقات العلمية بين بجاية وتلمسان في ميدان التوثيق، ومن الموثقين التلمسانيين الذين عملوا ببجاية أيضا الفقيه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

القاضي الموثق أبو العباس أحمد بن عيسى البطيوي التلمسانيالذي لقب "بفقيه بجاية "[31].

- موثقو بجاية وموثقو الأندلس

ساهمت الرحلة العلمية في تبادل المعارف ونقل الخبرات خاصة من الأندلس إلى بجاية نتيجة لثراء الكتابات الأندلسية في علم التوثيق مثل وثائق ابن العطار وابن الهندي والمتيطية وابن فتوح وابن عات...، فقد تأثر البجائيون بهذه الكتابات واعتمدوها في صناعة التوثيق البجائي؛ من بين العلاقات البجائية الأندلسية في التوثيق علاقة التكوين والدراسة، فكثير من البجائيين رحلوا إلى الأندلس وسمعوا من مشايخها مثل: "أبي القاسم بن السطاح العدل الفقيه البجائي الذي رحل إلى اشبيلية وقرأ بها ولقي أبا الحسن (أبو عبد الله) محمد بن سعيد بن زرقون الاشبيلي وأبا بكر بن طلحة وأبا عبد الله محمد بن علي بن طرفة وأجاز له أبو الحسن بن زرقون، ولما عاد إلى بجاية تخطط بالعدالة "[32]؛ فابن السطاح قرأ باشبيلية وبرز ببجاية وتخطط بها بالعدالة مما يجعله نتاجا للمدرسة الأندلسية ولجهود مشايخها وموثقيها.

من أهم الإشارات الدالة على علاقة التوثيق البجائي بالأندلسي مقارنة الغبريني بين وثائق عبد الحق بن ربيع ووثائق الجزيري، حتى أن ابن سبعين أعجب بوثائق عبد الحق بن ربيع ونقل عنه نماذج من وثائقه في كتبه[33]ورغم الأصول الأندلسية لعبد الحق بن ربيع إلا أنه ولد وقرأ ببجاية وبرز فيها وتأثيره في التوثيق الأندلسي يظهر من خلال نقل ابن سبعين عنه وشهادة الغبريني فيه، فقد أثنى على هذا الموثق البجائي علم من أعلام الأندلس وهو يبين الصدى الذي بلغه عبد الحق بن ربيع ووثائقه ومن ورائهما التوثيق البجائي.

من الموثقين الأندلسيين الذين اختاروا بجاية مستقرا لهم أبو عثمان سعيد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن الأنصاري البلنسي، الذي ارتحل من

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بلنسية واستقر ببجاية فاستعمل فقهه في خدمة المجتمع البجائي "فأخذ عنه واستفيد منه حتى أنه تخطط بالعدالة فكانت صفة له"[34].

كذلك الموثق "أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين بن سعيد بن إبراهيم الأزدي الاشبيلي الذي رحل إلى بجاية وتخيرها وطنا فجلس بها للوثيقة والشهادة وبها اشتهر حاله وظهرت تصانيفه"[35].

كما نجد العدل الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الخزرجي الشاطبي (ت 691 هـ/1292 م) الذي "تولى قضاء بجاية "[36] وكتب العقود بها، فهو موثق أندلسي أصله من شاطبة وظهر ببجاية.

ومن الموثقين الأندلسيين الذين عرفوا ببجاية العدل أبو العباس أحمد بن الحسن بن الغماز الأنصاري "من أهل بلنسية رحل لبجاية واستوطنها "[37]، فكانت رحلته بعد تحصيله العلمي بالأندلس وبرز فيما بعد بالتوثيق في بجاية[38].

ومن الموثقين البجائيين الذين تعلموا بالأندلس وساهموا في تكوين علاقة علمية بين بجاية والأندلس أبو زكرياء يحي بن عباس بن أحمد بن أيوب القيسي من "عدول الشهود البجائيين الذين أخذ الناس عنه رحل من قسنطينة إلى الأندلس سنة (608 هـ/1211م) وأخذ عن أبي الخطاب بن واجب (ت 614 هـ/1217م) وأبي الحسن (أبو عبد الله) محمد بن سعيد بن زرقون الاشبيلي وغيرهما"[39] وهذه النماذج التي تفقهت بالأندلس وظهرت ببجاية في مجال التوثيق تثبت وجود علاقة بين التوثيق البجائي والأندلسي.

إذا فعلاقة التوثيق البجائي بالأندلسي كانت قائمة أساسا على الرحلة العلمية فالعديد من الموثقين البجائيين رحلوا إلى الأندلس وتعلموا بها ثم عادوا إلى بجاية وظهروا بها، كما أن هناك من الموثقين الأندلسيين من فضلوا الاستقرار ببجاية فظهروا بها واشتهروا وتخططوا بالعدالة وكما سبق وأن عرضت فمن أبرز موثقي المغرب الأوسط عبد الحق بن ربيع الذي

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

اعتمدت وثائقه كنماذج تتبع في الأندلس وأعجب بها علماء الأندلس ومنهم ابن سبعين.

- موثقو بجاية وموثقو المغربين الأدنى والأقصى.

تعددت حواضر المغرب الإسلامي التي ربطت معها بجاية علاقات علمية، فقد كانت بجاية من مراكز هذا المحور الحضاري بين المغربين الأدنى والأقصى خاصة القيروان وفاس؛ وبجاية كانت مشتملة في السلطة الحفصية وهي أحد أهم أقاليمها وعليه كان التوثيق بها كتوثيق افريقية ورغم هذه الوحدة السياسية وتشابه الخطط إلا أن التوثيق تنبع خصوصيته من المجتمع وأعرافه ومجتمع بجاية يختلف عن مجتمع إفريقية مما يجعل المحلي في التوثيق قوي خاصة في مجتمع ثري ومتنوع مثل المجتمع البجائي، لكن من جهة أخرى فابن الطير أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عبد السلام الذي كان "من أهل إفريقية، درس بتونس ورحل إلى بجاية فأقرأ بها وتخطط بالعدالة ثم رقي لقضائها "[40]فقد أقرأ بتونس وبجاية ومؤكد أنه نقل معه معرفته بالوثائق التي حازها في إفريقية ووظفها أثناء قضائه ببجاية وهذا ما يبين أنه لا يوجد – تقريبا – اختلاف بين ما هو متعارف عليه بخصوص الوثائق في إفريقية وما عليه العمل بخصوص التوثيق في بجاية، كما أن افتقاد التبادل العلمي للموثقين بين بجاية والمغرب الأقصى يجعلني أقول أن العلاقة العلمية بين بجاية وإفريقية هي أمتن منها بالنسبة للمغرب الأقصى وربما يرجع ذلك لأسباب سياسية أو لتفضيل أهل المغرب لتلمسان وقربها عن بجاية بالنسبة لهم، أو أن السبب في قوة العلاقة بين بجاية وإفريقية هو الامتداد السياسي للدولة الحفصية الذي جمع بين بجاية وإفريقية في مجال واحد مما سهل التفاعل والتبادل العلمي بما فيه التوثيق.

- موثقو بجاية والمشرق

كان أبو الروح المنكلاتي الزواوي الذي صنف في الوثائق - وقبل ذلك كان قد تفقه ببجاية ثم رحل للقاهرة - هو الرابط بين بجاية والقاهرة؛ حيث "تولى نيابة القضاء ثم تولى التدريس بزاوية المالكية بالقاهرة "[41]، فتوليه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لهذه المناصب في القاهرة يبين مستواه الفقهي والتوثيقي الذي حصله من تكوينه في المدرسة البجائية.

من الموثقين البجائيين الذين رحلوا إلى المشرق أيضا العدل المرضي أبو علي عمر بن أحمد العمري البجائي الذي " قرأ على جملة من مشايخ المشرق "[42] ثم رجع إلى بجاية فكان من عدولها المرضيين وانتصب للتدريس بها وهذا النموذج يبين أن الرحلة العلمية للمشرق ذات اتجاهين: الأول يكون فيه الموثق قد تفقه ببجاية ويظهر بعد ذلك في المشرق أما الثاني فيحصل ويستفيد بالمشرق ثم يظهر ببجاية، هناك من الموثقين من يكون أصله من بجاية لكنه يقرأ بالمشرقو يظهر به مثل أبي عبد الله جمال الدين محمد بن سليمان بن يوسف الزواوي الذي كان من "أهل زواوة ثم قدم الإسكندرية فتفقه بها وبرع، عالج الشروط وناب في الحكم بالقاهرة وحكم بالشرقية ثم تولى قضاء دمشق ومات بها"[43].

من خلال هذه العلاقات المتعددة لموثقيبجاية يبدو جليا قدرة بجاية على الاستقطاب والتأثير سواء استقطاب الموثقين أو استقرارهم ببجاية بسبب توفر العوامل المساعدة على ذلك مثل: توفر الظروف العلمية المساعدة كالمساجد وحرية التدريس فيها وانتقال الموروث الفقهي والتوثيقي من القلعة - التي أخذت مكان القيروان قبل ذلك - إلى بجايةزيادة على قرب بجاية من ساحل البحر مما سهل ربط علاقات مع الأندلس والمشرق عن طريق البحر وكذا قربها جغرافيا من إفريقية وعليه فهذه العلاقات المتعددة ساهمت في إبراز مكانة مدرسة التوثيق البجائية.

مما سبق ذكره نقول إن: "بجاية المحروسة دار علم وحضرة فقه ودين"[44]، ذات مدرسة في التوثيق مكتملة الأطراف؛ بل هي مدرسة متميزة حتى أن الغبريني عقد مفاضلة بين التوثيق البجائي والأندلسي وغلب الكفة للمدرسة البجائية وشيخ موثقيها وفخرها عبد الحق بن ربيع وقال: لو رآه أبو الحسن الجزيري صاحب " المقصد المحمود في تلخيص العقود" لأتبعه وأخذ منه.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فمدرسة بجاية مكتملة الأركان متميزة بموثقيها وبمؤلفاتها في علم التوثيق.

4- أهم مؤلفات التوثيق البجائية.

- وثائق البجائي: لابن القلوذي أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ق 9 هـ/15 م)[45].

هو مصدر مخطوط من خزانة التوثيق البجائية مؤلف مهم غني بمادة مصدرية نوعية ولا يزال لحد الآن مخطوطا مجهولا، أهميته تظهر من خلال أحد الطرر الموجودة على حواشي المخطوط والتي نصها: "قال الونشريسي عقب كلام البجائي ..."[46] وهذه الطرة تفيد بأن هذا المخطوط كان معروفا عند الونشريسي صاحب "المعيار المعرب"، كما أنها توضح أنه قد انتشر خارج موطنه الأصلي بجاية على الأقل إلى تلمسان وفاس اللتان أقاما بهما الونشريسي؛ كما أن قلة مؤلفات التوثيق البجائية المعروفة لحد الآن تجعل من وثائق البجائي هذا على قدر كبير من الأهمية في دراسة علم التوثيق البجائي وتطور الفقه المالكي ودراسة المجتمع البجائي وكذلك تبرز أهميته من خلال المصادر التي اعتمد عليها، فهي مصادر نوعية متخصصة في الوثائق تزيد من قيمة المخطوط، فقد اعتمد على مؤلفين متخصصين في التوثيق منهم: ابن بطال (ت 302هـ/914 م)، ابن أبي زمنين، ابن العطار أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ابن الهندي أبو عمرو بن سعيد بن إبراهيم الهمذاني، ابن مغيث الطليطلي، ابن الطلاع أبو عبد الله محمد بن فرج (ت 497 هـ/1103 م)، ابن فتحون خلف بن محمد(ت 505 هـ/1111 م)، المتيطي أبو الحسن علي بن عبد الله بن إبراهيم، ابن سلمون أبو القاسم بن علي بن عبد الله بن سلمون الكناني الغرناطي(ت 767 هـ/1365 م) وآخرون، زيادة على أمهات الكتب الفقهية المالكية منها: "المدونة" لسحنون بن سعيد التنوخي، القاسمية كتاب " الاستغناء في آداب القضاة والحكام" لخلف بن مسلمة بن عبد الغفور (ت 440 هـ/1048 م)، "الأسدية" "الإعلام بنوازل الأحكام" لابن سهل أبو الأصبغ عيسى القرطبي "جامع مسائل الأحكام مما نزل من القضايا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بالمفتين والحكام" للبرزلي أبو القاسم احمد البلوي القيرواني (ت 841 هـ/1437 م).

المخطوط ينتمي إلى مدينة بجاية ويتضح ذلك من عنوان المخطوط "وثائق البجائي" المنسوب للبجائي والذي بدوره هو منسوب إلى مدينة بجاية، ويتأكد ذلك من خلال تكرار ذكر بجاية في متن المخطوط لمرات عديدة، وهو مخطوط غير مكتمل، ينتمي مكانيا إلى مدينة بجاية وزمنيا ربما إلى نهاية القرن التاسع الهجري، وعليه يجب البحث عن نسخ أخرى له حتى تسهل عملية تحقيقه ودراسته ويصبح جاهزا للنشر والخروج من دائرة المفقود حتى يأخذ مكانته ضمن مؤلفات المذهب المالكي وضمن مصادر المغرب الأوسط.

- مغني الموثقين عن كتب الأقدمين لمؤلف مجهول من بجاية.

ذكر عبد اللطيف الشيخ هذا العنوان اعتمادا على نسخة من السفر الثاني لهذا المخطوط وقف عليها بدار الكتب الوطنية التونسية تحمل الرقم (6545)، قدم وصفا عنها فصاحبها مجهول ويبدو من خلال المخطوط أنه قد رحل إلى تونس واستقر بها وعقد الوثائق بين الناس فهو من أهل القرن التاسع الهجري؛ ويتضح ذلك في آخر السفر الثاني حيث يقول: "تم السفر الثاني من مغني الموثقين عن كتب الأقدمين وبتمامه تم جميع الديوان والحمد لله بمحروسة بجاية أعادها الله للإسلام عشية يوم الاثنين من شهر رمضان عام ثمانية عشر وثمان مائة"[47].

- صناعة التوثيق ببجاية.

توجد نسخة بالمكتبة الوطنية التونسية بعنوان قريب جدا من هذا العنوان هو " صناعة التوثيق عند أهل بجاية" رقمها (A-MSS- 22651) وهذا المخطوط يعد من أهم مصادر تاريخ مدينة بجاية إذ يمثل الموروث الحمادي والموحدي وإلى جانب الزياني، أما جغرافيا فهو ينتمي إلى مدينة بجاية،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صاحبه مجهول وينتمي زمنيا إلى نهاية القرن الثامن وبداية التاسع الهجريين، جمع فيه مؤلفه مجموعة من الوثائق لموثقين من مدينة بجاية[48].

هذا النوع الجديد من المصادر الفقهية هي مصادر مهمة من تراث بجاية تزيد من مكانتها ضمن الرصيد الحضاري للعالم الإسلامي ككل وللمغرب الأوسط بخاصة مثل: "وثائق البجائي" و"صناعة التوثيق البجائي" وهذا العنوان الأخير يكرس يثبت تميز التوثيق البجائي عن غيره من المدارس الأخرى ووعليه يمكن القول إن بجاية حاضرة مهمة في المغرب الأوسط تمكنت من إنتاج العديد من الرجال والمؤلفات المهمة في علم التوثيق مما سمح لها أن تبرز كقطب علمي مهم في فرع من فروع الفقه التطبيقي وهو علم التوثيق.

5- ملامح المجتمع البجائي من خلال كتب الوثائق.

- الزواج.

يعد الزواج من أهم المواضيع التي اهتمت بها كتب الوثائق من أجل حفظ الحقوق خاصة بالنسبة للزوجة سواء كانت مسلمة أو ذمية وكثيرا ما تحفظ الوثائق معلومات مختلفة في هذا الجانب ومنها وثيقة تثبت زواج البجائيين المسلمين من نساء ذميات: "وثيقة نكاح مسلم كتابية: تزوج على بركة الله وحسن عونه فلان الفلاني فلانة النصرانية أو اليهودية ابنة فلان من تجار النصارى بمدينة بجاية المحروسة أو ابنة فلان اليهودية أو الذمي الثيب المالكة أمر نفسها ..."[49].

ومن المواضيع الأخرى التي تختزنها كتب الوثائق هي المستلزمات التي تدخل في جهاز العروس ورغم أن الذي تولى شراء هذه المستلزمات هو والد العروس من نقد مهرها إلا أنه يشهد على نفسه بذكر صفة اللباس والحلي وثمن جميع ما ابتاعه بالتفصيل إبراء لذمته وبحضور شاهدين وهو ما يبين درجة تمسك المجتمع البجائي بتعاليم الدين الإسلامي في الزواج فلا يرضى أب الزوجة أن يأخذ من مهرها شيء من جهة، ومن جهة أخرى فالوثيقة لا تبين

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أن أب الزوجة يساهم في جهاز ابنته فجهاز العروس في بجاية يكون على عاتق العريس ومثال ذلك " وثيقة بإيراد شوار: أورد فلان الفلاني بيت ابنته فلانة مع بعلها فلان الفلاني أسبابا تتفسر بأثمانها فمن ذلك كله[50] واحدة من حرير من عمل الأندلس ... من النوع المسمى حجلة[51] بثمن مبلغه كذا ومن ذلك فردتا خلخال من ذهب ... ومن ذلك خيط واحد من الجوهر بكراسي ستة من الذهب وحجر نفلينفي واسطته ... ومن ذلك كله ثالثة من حرير من عمل تونس ثمنها كذا ومن ذلك ستارةمن حرير نجد وحدها ... "[52]؛ ويبدو جليا أن عرائس بجاية كن يفضلن أن يكون جهازهن من أفضل أنواع اللباس والحلي فكن يميزن بين أنواع الحرير ويخترن أفضله فالوثيقة تذكر أنهن يخترن الحرير الأندلسي والتونسي والنجدي فهن يفضلنه عن غيره، كما أنه يمكن أن يستفاد من هذه الوثيقة في جانب العلاقات التجارية بين بجاية والمدن الأخرى فقد كانت تصلها السلع من مختلف المناطق حتى البعيدة نوعا ما مثل نجد.

- أواني البيت:

من الأواني التي كان البيت البجائي يحتوي عليها: "طست كبير، مهراس، سطل، خابية وخزانة"[53] إضافة إلى أفرشة وستائر؛ وهذه وثيقة تصف أفرشة أحد البيوت البجائية وهي:

" ... كلةحرير أندلسية بأربعة أمخاد قاعتها بنفسجي ورداء[54] اشطرنجي بحواشي حمر ومخدات عشر أربعة منها سند[55] وأربع منها من الثوب الأندلسي واثنان من البلدي وتفصيلة[56]حرير أندلسي العمل مخيطة من المسمى قاطع ومقطوع في الكبير ووقاية[57]حرير بيضاء ... بحواشي زرق زنتها كذا ... "[58]، وقد استغل أهل بجاية الجلود كأفرشة بعد معالجتها ففي أحد الوثائق لم يخلف أحد الموتى شيئا يورثه سوى "هيادر ثلاثة"[59] إضافة إلى أفرشة أخرى هي الحنابل، وهذا أحد العامة " ... في ماله وذمته كذا دينارا ذهبا وجبت عليه من ثمن حنبلا صفته كذا ابتاعه وقبضه بعد أن وزنه وقلبه ورضيه وأحاط علما بجملة أذرعه طولا وعرضا ..."[60].

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذه المعلومات حول أواني البيت في بجاية تعتبر مميزة وأكثر تفصيلا من غيرها خاصة ما تعلق بالكلل والأردية، فالوثائق لا تكتفي بذكر لونها فقط بل تتعدى إلى الوصف الدقيق وذكر تسمية النوع مثل القاطع والمقطوع والاشطرنجي وهو يعني أن كتب الوثائق تعتبر مصادر مهمة جدا في الكشف عن هذه الجوانب الخفية والدقيقة في التاريخ الاجتماعي.

وفي وثيقة حبس تظهر فئة أخرى هي فئة الفقراء: " ... الدار المحبسة على الفقراء ببجاية من داخل بجاية المحروسة ... الكائنة بحومة كذا ... "[61].

- الحرف:

- الدلال: هو "الذي يعرف القادمين من التجار بموضع السلع في البلد ويعرف أرباب السلع بالتجار، فيسمى الدلال لأنه يدل المشتري على البائع والبائع على المشتري"[62] ينادي على الأمتعة لبيعها في الأسواق والقيساريات، كما قد يشترك اثنان في الدلالة كما تورده الوثيقة التالية: " وثيقة اشتراك الدلالين: ... فلان وفلان توافقا على ... بيع الأمتعة والنداء عليها بقيسارية بجاية المحروسة ... "[63].

- النساج: كتب الوثائق تقدم تفصيلا بخصوص النساجين، فهم قد يستأجرون لمدة طويلة من طرف أصحاب المصانع مقابل أجر شهري مثلما تبينه الوثيقة التالية: "استأجر فلان فلان ليعمل له في نسج المقاطع ... بالقطن أو بالكتان من عدة عشر بيوت... أو في نسج العمائم أو نسج المناديل[64]لمغطاة بالحرير أو المغلقةبغير حاشية من عدة كذا كذا بيت من الغزل البلدي أو البراني ..."[65] هذه الوثيقة توحي أن هذا المستأجر قد يكون صاحب معمل للنسيج في مدينة بجاية يجمع مادته الأولية من بيوت بجاية ويقوم النساجون الذين يستأجرهم بتحويلها لمنسوجات بفضل حرفتهمو مقابل أجر شهري.

- الرايس: من المهن البحرية التي احترفها سكان المدن الساحلية مثل بجاية فكان للرياس قوارب يستخدمونها في نقل الأفراد والسلع مثلما تدل عليه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هذه الوثيقة: "التزم الرايس ... أن يحمل في قاربه المعروف بساحل بجاية المحروسة ... قنطارا من الحديد... حتى يوصله إن شاء الله آمنا بسلعته إلى مرسى حضرة تونس المحروسة ... "[66].

- المنتوجات الفلاحية:

وثائق البجائي غنية بإشارات مهمة عن المنتوجات الفلاحية ببجاية وهي أصناف عدة منها: الحبوب والخضار والفواكه ومنتوجات غابية وحيوانية، لم يكتف بذكرها فقط بل وصفها بشكل مفصل على عادة كتب الوثائق لتمييز المنتوجات عن بعضها وهو ما جعل هذه المعلومات مهمة جدا فعسل النحل ببجاية يختلف نوعه باختلاف مكانه وزمانه، فحسب النوع: خفيف وخاثر وحسب الزمن فهو يكون تبعا للفصول الثلاثة التي يجنى فيها: عسل الربيع، عسل الصيف أو عسل الخريف والزيت كذلك أنواع: زيت عذب صافي وزيت القيعان وهو الذي يبقى في قيعان الأواني حين عصر الزيت وهو دون الزيت العذب الصافي الذي يستخدم للأكل والاستصباغ وحتى الحبوب من القمح والشعير التي تستهلك على مستوى واسع هي أيضا أنواع ولها أسماء منها القمح الحمرا والبيضاء والشعير الأبيض ومنها "قمح بني حسن وقمح بني وجهاز "[67] و "شعير سوق خميس تبكلات أو تاكرارت من عمل بجاية المحروسة "[68] كما أن حبوب القمح والشعير تنقى بعد حصادها لتكون من النوع الفاخر.

ووصف البجائي قمح وشعير بجاية بأنه ممتلئ وأن عسلها يجنى في ثلاثة مرات في العام واستشهاده بأكثر من عشر أنواع من الخضار ومحاصيل أخرى دلالة على التنوع والغناء الفلاحي في بجاية.

- التجارة:

تقوم التجارة في أماكن التجمعات فتعقد الأسواق ويجتمع فيها الناس للتبادل التجاري، كما أن هناك أسواقا تعقد بأحد أيام الأسبوع وهي مشهورة بذلك "كسوق الجمعة بقبيلة بني عبد الجبار وأسواق أخرى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مشهورة بسلع معينة كسوق خميس تبكلات وسوق تاكرارت من عمل بجاية المشهورين بالشعير ومعادن الحديد المشهورة عند بني حسن وبني عبد الجبار"[69] و" قمح بني حسن أو بني وجهاز "[70] وهناك أسواق للحيوانات تباع فيها "الماشية وذات الحافر كالحصان والرمكة[71] والفرس والبغل والحمار والأتان"[72]، وكل هذه المبادلات التجارية تكون بالعملة الذهبية أو الفضية المتداولة ومن العملات التي نصت عليها الوثائق الدينار الفضي: "باع فلان من فلان مملوكه الجناوي المسمى بكذا بيعا صحيحا تاما بثمن جملته خمسون دينارا فضة سكة جديدة ... "[73].

كانت هناك مبادلات تجارية بين بجاية وقسنطينة والجزائر وهذه أحد الوثائق التي تثبت ذلك: "وثيقة اكتراء دابة معينة للحمل: اكترى فلان من فلان بغله الأخضر القارح الحسن ... ببردعته ولجامه ليحمل عليه قنطارا واحدا ... من بجاية المحروسة وبوزنها إلى بلد قسنطينة المحروسة ... التزم فلان الفلاني توصيل فلان الفلاني راكبا على فرس ذكر... دلول بسرجه ولجامه من مدينة بجاية المحروسة إلى بلد الجزاير المحوط..."[74].

ومن أهم الوثائق التي تثبت وجود تبادل تجاري مهم بين بجاية وقسنطينة وثيقة شراكة بين تاجرين واحد في بجاية والآخر في قسنطينة هذا نصها: " وثيقة شركة بمال في بلدين: ... فلان وفلان توافقا على الشركة... بينهما في مائتي دينار... كلها من الدنانير الفضة الجديدة ... ليحاولا التجر فيما رأياه من أنواع التجر بمدينة بجاية وقسنطينة المحروستين على أن يكون فلان عنهما هو المتولي ذلك ببجاية المحروسة وفلان المذكور هو المتولي لذلك بنفسه بقسنطينة المحروسة يجهز كل واحد منهما لصاحبه ما يظهر له ويرى فيه النفع من أنواع المتاجر ولكل واحد منهما من الربح بعد قبض رأس ماله ... بقدر ما للآخر ... "[75]

أما التجارة الخارجية لبجاية فكانت تتم عن طريق البحر مع الحواضر التي لها سواحل فكانت بجاية تصدر الحديد إلى تونس عن طريق البحر مثلما

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تدل عليه هذه الوثيقة: "التزم الرايس ... أن يحمل في قاربه المعروف بساحل بجاية المحروسة ... قنطارا من الحديد ... حتى يوصله إن شاء الله آمنا بسلعته إلى مرسى حضرة تونس المحروسة ... "[76].

- العمران البجائي.

كتب الوثائق غنية بالمعلومات العمرانية فهي منثورة في عقودها وتبقى بحاجة لمن يجمعها وينظمها حتى يتمكن من رسم صورة مكتملة للعمران البجائي ويمكن لهذه الوثائق أن تقدم صورة مفصلة عن تخطيط البيت في بجاية وكذلك تخطيط المدينة من خلال بعض الوثائق.

-تخطيط البيت البجائي.

شكلت دور العائلات الثرية في الحواضر معالم عمرانية حيث "تميزت بشساعتها واحتوائها على حجرات كبيرة وقاعة مفصصة تحيط بها الحدائق وتتخللها ممرات بها نافورات وبرك"[77] أما مساكن العامة فكانت بسيطة تتكون من "غرف مبنية من الحجارة والطين والخوص والشجر"[78]، أما المواد اللازمة للبناء التي كانت متداولة ببجاية فهي " ... الحجر والجبار والتراب و... القرمد والخشب ... والرمل ... والجص ... "[79].

من أهم الوثائق التي تعرف بتخطيط البيت البجائي وثيقة لبيت من العامة مختزنة بمخطوط وثائق البجائي ذات أهمية كبيرة لكونها تكشف عن مساكن العامة في تلك الفترة نصها: "وثيقة استئجار بناء على ِبناء معلوم: استأجر فلان فلانا ليبني له ... في موضعه الكائن بحومة كذا من داخل بجاية المحروسة ثلاثة بيوت بساحة موضعه المذكور فيه أحدها شرقي الباب والآخر غربية والثالث جوفي الباب طول كل بيت منها ستة وعشرون شبرا بالوسط وعرضه أحد عشر شبرا وارتفاعه إلى أخشاب سقفه ثمانية عشر شبرا ويبني له على البيت القبلي والشرقي منها مقدمة بإخراج إلى جهة ساحة الموضع المذكور بذراع واحد بالوسط وتشتمل المقدمة المذكورة على بيتين متقابلين أحدهما قبلي والآخر جوفي بابه وقدر كل بيت منها طولا وارتفاعا

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

على قدر البيوت المذكورة ملصقة بالركن الشرقي الكذا من البيوت الثلاثة التي بساحة الموضع المذكور فيه ويكون ارتفاع كل درجة كذا واتساعها كذا ويجعل بونا صغيرا بموضع كذا من ساحة الموضع المذكور طوله كذا وعرضه كذا وارتفاعه كذا ليكون جهاز الموضع المذكور ويجعل فيه كرسيا على أن يكون بناء ذلك كله وجميع ما يحتاج إليه البناء المذكور من جيار وجص وآجر ورمل وخشب وغير ذلك على مالك الموضع المذكور فيه وعلى الأجر المذكور ما يحتاج إليه في بنائه من ماعون البناء التي جرت العادة بكونه على البناء [ ]وما يفتقر إليه من الرجال الخدمة الذين يقومون معه في ذلك على أن يكون شروعه في البناء المذكور فيه في غدوة يوم السبت الآتي قريبا لتاريخه بإجارة مبلغها كذا وكذا مؤجلة عليه إلى انقضاء شهر كذا توافقا على ذلك كله ... "[80].

إن هذا الوصف الدقيق لتخطيط البيت البجائي يبين أن مساكن العامة كانت تتكون غالبا من طابقين؛ بالطابق الأول ثلاثة غرف وبالطابق العلوي غرفتان بينهما درج يصعد به إلى الأعلى حتى أنه يمكن لمن يملك هواء فوق داره أن يبيعه لغيره لغرض البناء عليه، وهو ما يعرف في الوثائق ببيع الهواء مثلما تبينه الوثيقة التالية: "وثيقة بيع هواء: باع فلان من فلان ارتفاع عشرة أذرع من سقف بيته القبلي الكائن بداره من حومة كذا من داخل مدينة بجاية المحروسة على أن يبني المبتاع المذكور فوق هذا السقف المذكور علوا مشتملا على بيتين اثنين أحدهما في الجهة الجنوبية منه والآخر في الجهة القبلية طول كل بيت كذا ذراعا وعرضه كذا كذا ذراعا ومستخدمه في جهة كذا طولها كذا وعرضها كذا ومرحاضها في ناحية كذا وينصب قناته به [حلاقم] ملصقة بالبناء مع حائطه كذا إلى أن تصل القناة المذكورة بالأرض فتنصرف من هنالك بجحران بباطن الأرض مارة إلى جهة الشارع الذي بقرب الدار المذكورة فيه على أن يكون بناء العلو المذكور بالجص والآجر وغلظ جدرانه غلظ آجرة ويكون سقفه بالقرمد وخشبه مربعة أو مقصبة غلظ كل خشبة منها كذا بين كل خشبتين منها وخشبتين ذارع واحد يجعل فيه عند

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العقد ما يليق به وعلى أن يكون المنصب المياه المطرية التي تجتمع بالسقف المذكور على ما ولاه من الشارع الذي سلك عليه من شرقي الدار المذكورة ويكون الطلوع إلى هذا العلو المذكور على أدراج يوضع أولها بكذا من ساحة الدار المذكورة وينتهي آخرها إلى جهة كذا من العلو المذكور وعلى أن يفتح المبتاع المذكور في جداره الموالي لدار البايع المذكور طاقتين اثنين يتطلع الناظر من كل واحد منهما جالسا على ساحة الدار المذكورة وعلى أن له المدخل والمخرج من باب الدار المذكورة بيعا صحيحا تاما منبرما سالما ... إن الذراع التي وقع التبايع بينهما بها على الذراع الموصوفة لقيس الأمتعة وغيرها بسماط بجاية المحروسة ... "[81]، وتظهر أهمية هذه الوثيقة في تركيزها على ثلاث نقاط أساسية هي: التهوية، النظافة والمدخل، أما التهوية فهي وجوب فتح المبتاع للهواء طاقتين، أما النظافة فتتضح من خلال إلزامية تمييل الشاري للهواء لسقف بيته باتجاه الشارع حتى لا ينساب المنصب من المياه المطرية التي تجتمع بالسقف المذكور على ساحة الدار السفلية وكذلك وفي إطار النظافة وجب بناء مرحاض في الدار العلوية مع ربط قناته وفق التفاصيل التي نصت عليها الوثيقة السابقة، أما المدخل للبيتين العلوي والسفلي فهو واحد وهو ما يشبه شكل العمارات حاليا.

- **مرافق مدينة بجاية.**

لا نهدف في هذا العنصر إلى الإلمام بكل المرافق في مدينة بجاية لكن نحاول إبراز دور كتب الوثائق في الكشف عن المرافق العامة في بجاية والغرب الإسلامي ككل، من المرافق العامة التي كانت ببجاية والتي وردت في كتب الوثائق هي الأسواق ومنها: "سوق العطارين، سوق الزياتين وعتبة السمارين التي تقام بها صناعة الحدادة "[82].

ومن المرافق الأخرى نجد الطواحين، الأفران والحمامات مثلما تورده هذه النماذج من الوثائق: "... الطاحون المعروف بفلان الفلاني الكائن بحومة كذا من داخل بجاية..."[83] ؛ " كوشة الطبخ المعروفة لفلان الفلاني الكائنة بداخل بجاية المحروسة بحومة كذا بجميع حقوقها وعامة منافعها ... جميع الحمام

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المعروف بداخل بجاية وبحومة كذا ... منها مستوقده وقدره والاستقاء من بيره الكائنة بالخربة اللصيقة به ومرفقه المعد لوضع زبله وغير ذلك ..."[84].

أما المرافق التي كانت قائمة على ساحل مدينة بجاية فمنها دار صناعة الأنشاص وهذه وثيقة تنص عليها: "حضر بمحضر شهيديه فلان الفلاني وباع من فلان الفلاني جميع القارب المعروف به بساحل مدينة بجاية المحروسة أو جميع القارب المعروفة به الآن بمرسى بجاية أو جميع القارب المعروفة به الذي هو الآن بدار صناعة الأنشاص داخل بجاية المحروسة ..."[85]، والنص إضافة إلى أنه يسمي بعض المرافق فهو يعطي شرحا ومفهوما لها، فدار صناعة الأنشاص كما هو واضح في النص مكان على شاطئ البحر مخصص لصناعة السفن، كما أنه في مدينة بجاية تقوم صناعة القصارة بشاطئ البحر من شرقي بجاية المحروسة ..."[86].

هذه بعض المرافق العامة أما المرافق الرسمية فمثالها بيت المال ببجاية، وهو مرفق رسمي تابع للدولة قائم بداخل مدينة بجاية وهذه وثيقة تذكر ذلك: "وثيقة بيع أنقاض قائمة على ساحة لبيت المال بشرط الهدم: باع فلان من فلان جميع الأنقاض المعروفة به القائمة بساحة لبيت المال وهي أنقاض الدار الكائنة بداخل مدينة كذا منها..."[87].

كل المرافق السابقة كانت داخل مدينة بجاية، وهناك مرافق أخرى خارجها وتحفل كتب الوثائق بذكرها، "كسوق الدواب الذي هو خارج باب عزوز"[88]، " قاعة القرمديين خارج باب عزوز"[89] و"قاعة الجيارو حومة الفخارين بربض بجاية المحروسة "[90].

-الخاتمة:

بناء على المقتطفات السابق ذكرها والتي اخترتها من كتب الوثائق تمكنت من كشف بعض مرافق مدينة بجاية سواء التي بالداخل أو التي بالخارج، كما تمكنت من التعريف بخصوصية البيت البجائي وهي معلومات أحسبها أكثر زخما في كتب الوثائق من الكتب الأخرى وعليه تصبح عملية الاطلاع

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والاستعانة بكتب التوثيق في الدراسات العمرانية والاقتصادية والاجتماعية واجبة على الباحثين في هذا المجال لما تحتويه من معلومات لا يمكن أن يجدها الدارس في مصادر أخرى، كما أنني ومن خلال بعض نماذج الوثائق تعرفت على بعض الملامح لبجاية من خلال استعراض مدرسة التوثيق البجائية والتي تميزت بمشيختها وعلاقاتها العلمية المتعددة بما سمح لها أن تكون من أهم مدارس التوثيق بالغرب الإسلامي.

-الهوامش:

1- الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد (ت 914 هـ/1508م): المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بآداب الموثق وأحكام الوثائق، نشر عبد الوهاب الدوكالي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 71.

2- أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله (ت 714هـ/1314م): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، ط 2، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1979،ص 111.

3- في هذا الموضوع نشر مقالان الأول بالجزائر والثاني بالعراق وهما: عبد السلام همال: خطة الوثائق السلطانية في الأندلس، مجلة عصور، ع 16، جامعة وهران، جوان 2010، ص- ص 211- 241. أنسام غضبان عبود: صاحب الوثائق وعمله في الأندلس، مجلة دراسات تاريخية، ع 13، جامعة البصرة، ديسمبر، 2012، ص- ص 227-276.

4- عبد السلام همال: علم الوثائق بالأندلس من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة، أطروحة دكتوراة العلوم في التاريخ الإسلامي الوسيط، جامعة الجزائر، 2010، ص 10.

5- الحفناوي أبو القاسم محمد بن أبي القاسم الديسي: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906، ج 2،، ص 327.

6- الغبريني: ص 82.

7- أبو محمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر الأنصاري البجائي (ت 675 هـ/1276 م) فقيه مالكي صوفي من أهل بجاية أصله من أبدة بالأندلس. الغبريني: ص 67. ابن القنفذ أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب القسنطيني: الوفيات، تح: عادل نويهض، ط 4، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983، ص 333.

8- الغبريني: ص 60.

9- أبو محمد عبد الله بن محمد بن موسى بن علوان الفقيه الكاتب الأديب المنشئ، له نظم في الفرائض وهو من أصحاب الغبريني. الغبريني: ص 314.

10- نفسه، ص 314.

11- الحفناوي: ج 2، ص 198.

12- نفسه، ج 2، ص 326.

13- الغبريني: ص 252.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

14- نفسه، ص 57.
15- نفسه، ص 314.
16- نفسه، ص 266.
17- نفسه، ص 111.
18- نفسه، ص، ص 214، 254، 282.
19- نفسه، ص 264.
20- أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الغرناطي: كتاب صلة الصلة، تح: شريف أبو العلا العدوي، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص 422.
21- الغبريني: ص 290.
22- نفسه، ص- ص 283- 287.
23- نفسه، ص 79.
24- نفسه، ص 119.
25- نفسه، ص 268.
26- نفسه، ص- ص 65- 66.
27- نفسه، ص- ص 266- 267.
28- نفسه، ص- ص 266- 267.
29- نفسه، ص 214.
30- الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1981، ج 5، ص 114. التنبكتي أحمد بابا(ت 1036 هـ/1626 م): كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ضب وتع: أبو يحي عبد الله الكندري، ط 1، دار ابن حزم، بيروت، 2002، ص 138.
31- التنبكتي: ص 59. التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989، ص 78. الونشريسي: المعيار المعرب، ج 2، ص 382. ابن مريم أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الشريف المليتي المديوني التلمساني (ت 1014 هـ/ 1605 م): البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مر: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908، ص 51. الحفناوي: ج 2، ص 69.
32- الغبريني: ص 263. الحفناوي: ج 2، ص 198.
33- الغبريني: ص 58.
34- نفسه، ص- ص 289- 290.
35- نفسه، ص- ص 41- 4.
36- نفسه، ص 115.
37- نفسه، 119.
38- عبد اللطيف أحمد الشيخ: التوثيق لدى فقهاء المذهب المالكي بإفريقية والأندلس من الفتح الإسلامي إلى القرن الرابع عشر الهجري، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، 2004، ج 2، ص 623.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

39- نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، ط 2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980، ص 271.
40- الغبريني: ص 221.
41- ابن فرحون برهان الدين أبي الوفاء إبراهيم بن محمد اليعمري المالكي (ت 799 هـ/1396 م): الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: مأمون بن محي الدين الجنان، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996، ص 283.
42- الحفناوي: ج 2، ص 291.
43- نويهض: ص 164.
44- ابن مرزوق الخطيب أبو عبد الله محمد التلمساني (ت 781 هـ/1379 م)، المناقب المرزوقية، تح: سلوى الزاهري، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2008، ص- ص 301-302.
45- مخ، مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء رقم: Ms510- M4.
46- نفسه، ورقة 17 ظ.
47- عبد اللطيف الشيخ: ج 2، ص 422.
48- هذا المخطوط لا يزال قيد التحقيق والإعداد للنشر من طرف الأستاذة مجاني بوبة رفقة فرقة بحث في مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي بقسنطينة.
49- ابن القلوذي: ورقة 3 ظ.
50- كله: كلمة فارسية معربة معناها سقف الدار، أي شيء بمنزلة السقف، وقد أطلقت في العربية على غشاء من ثوب رقيق يتوق به من البعوض والكلة الستر الرقيق يخاط كالبيت يتوق فيه من البق، رجب عبد الجواد إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، ط 1، دار الأفاق العربية، مصر، 2002، ص- ص 433-434.
51- حجلة: ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور للعروس وقيل: هي ستر يضرب للعروس في جوف البيت. نفسه، ص 127.
52- بن القلوذي:، ورقة 7 و.
53- نفسه، ورقة 71 ظ.
54- رداء: ما يلبس فوق الثياب كالجبة والعباءة ويستر الجزء الأعلى من الجسم. رجب عبد الجواد إبراهيم: ص194.
55- سند: السند هي الثياب البيضاء. نفسه، ص245.
56- تفصيلة: التفصيلة هي الثوب الجديد المفصل لمن يلبسه غالي الثمن. نفسه، ص359.
57- وقاية: شبه طاقية، تكون على رأس المرأة تحت الخمار تقيه من الدهن وعرق الرأس. رينهارتدوزي: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، مجلة اللسان العربي، الرباط، مج 10، ج 3، ص 206. رجب عبد الجواد إبراهيم: ص 533.
58- ابن القلوذي: ورقة 102 و.
59- نفسه، ورقة 71 ظ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

60- المازوني أبو عمران موسى بن عيسى المغيلي(ت 833 هـ/1429 م)، قلادة التسجيلات والعقود وتصرف القاضي والشهود، خزانة العائلة العثمانية، مكتبة زاوية علي بن عمر، طولقة، الجزائر، مخ رقم: ج 124 خ 252 ع، ورقة 28 ظ.

61- ابن القلوذي: ورقة 66 و.

62- أبو علي الحسن بن رحال المعداني: كشف الصناع عن تضمين الصناع، تح: محمد أبو الأجفان، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986، ص 100.

63- ابن القلوذي: ورقة 88 و.

64- المناديل: مفردها منديل، كلمة لاتينية معربة أصلها في اللاتينية Mantele منتيل واللفظ مركب Manus مانوس: أي يد و Tela تيلا: أي نسيج ومعناها كاملا قطعة النسيج التي كانت تستخدم لتجفيف اليدين بعد الأكل أو توضع على الصدر عند الجلوس على مائدة الطعام، والمنديل نسيج من قطن أو حرير أو نحوهما مربع الشكل يمسح به العرق أو الماء وللمنديل استعمالات كثيرة منها تغطية أطباق الحلوة، تجفيف الجسد بعد الاستحمام، شد الوسط بدل الحزام، لف الرأس بدلا عن العمامة. رجب عبد الجواد إبراهيم: ص- ص 481-483.

65- ابن القلوذي: ورقة 83 ظ.

66- نفسه، ورقة 82 ظ.

67- نفسه، ورقة 63 ظ.

68- نفسه، ورقة 64 ظ.

69- نفسه، ورقة 64 ظ- 65 ظ.

70- نفسه، ورقة 63 ظ.

71- الرمكة: الفرس التي تتخذ للنسل. ابن منظور أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت 711 هـ/1311 م)، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، ط1، دار صادر، بيروت، 1955، مادة (رمك)، ج 10، ص 432.

72- المازوني: ورقة 83 ظ.

73- ابن القلوذي: ورقة 58 و.

74- نفسه، ورقة 84 و.

75- نفسه، ورقة 87 ظ.

76- نفسه، ورقة 82 ظ.

77- بوتشيش إبراهيم القادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع، الذهنيات، الأولياء، ط 1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1993، ص 31.

78- رشيد بورويبة: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص 163.

79- ابن القلوذي: ورقة 85 ظ.

80- نفسه، ورقة 85 و.

81- نفسه، ورقة 30 و- 30 ظ.

82- نفسه، ورقة 87 ظ- 88 و.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

83- نفسه، ورقة 66 و.
84- نفسه، ورقة 80 ظ.
85- نفسه، ورقة 55 و.
86- نفسه، ورقة 87 ظ- 88 و.
87- نفسه، ورقة 29 ظ.
88- نفسه، ورقة 92 و.
89- نفسه، ورقة 80 ظ.
90- نفسه، ورقة 66 و.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com